جرس الكلمة بلاغة في القرآن الكريم: جزء (عمّ) أنموذجاً

د .محمد خضير الحمداني د. عبد الجبار سعد السلامي

ملخص البحث

يتحدث البحث عن بلاغة الجرس في الكلمة القرآنية بوصفها أحد مكونات البنية اللغوية التي تسهم في بناء الإعجاز اللغوي للقرآن ، ويتعلق هذا البحث بالدقة في الفهم وقوة ربط بين المستويات اللغوية المتعالقة للوصول إلى تحقق البيان المُعجز للقرآن الكريم .وقد جعل من جزء (عم) مجالا للدراسة ولقد قدم مدخلا يبين أهمية الجرس الصوتي للكلمة في البناء اللغوي الدلالي ، ثم قام بعرض الكلمات التي تحتوي جرسا لافتاً يكتنز دلالة صوتية تشي ببيان إعجازي ، وكانت التفاسير وكتب اللغة هي المرجع في تفسير الآيات الكريمة ، ثم وضع خاتمة للبحث لخص فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث .

The Rhetorical Ring of the Word in the Holy Qur'an: Juzu' Amma as a Sample

Dr. Mohammed Khudair Al-Hamdani
Dr.Abdul Jabbar Saad Al - Salami

Abstract

The present paper deals with the rhetorical ring of the Qur'anic word which is considered one component of the language that contributes to the construction of the linguistic miraculousness in the Holy Qur'an. The paper also concerns about the precise comprehending and the strength of connection between the different linguistic levels to achieve the declarative miraculousness of the Quran . Furthermore, the research has made Juzu Ama the sample of the analysis .In the introduction, the researcher shows the importance of the word vocal ring in the linguistic and semantic structure of the word . Then , a survey has been made to pick up the words with effective semantic rings that indicate the declarative miraculousness . The formal interpretation books and the linguistic books are used for the interpretation of the Qur'anic verses. Finally, a conclusion is established to offer the main findings.

جرس الكلمة بلاغة

في القرآن الكريم جزء (عمّ) أنموذجاً

د .محمد خضير الحمداني

د. عبد الجبار سعد السلامي

مقدمة

الحمد لله وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد

إيمانا منا بتجدد مظاهر الإعجاز القرآني وكشفها عن ملامح جديدة لهذا الإعجاز كلما تقدّم الزمان، عقدنا العزم على المشاركة بمؤتمر الإعجاز القرآني الذي ينظمه ديوان الوقف السنّي، ولقد وقع اختيارنا على بلاغة الجرس في الكلمة القرآنية بوصفها أحد مكونات البنية اللغوية التي تسهم في بناء الإعجاز اللغوي للقرآن، ومجال هذا البحث يتطلب دقة فهم وقوة ربط بين المستويات اللغوية المتعالقة للوصول إلى تحقق البيان المُعجز للقرآن الكريم .وقد جعلنا من جزء (عم) مجالا للدراسة لاعتبارات إجرائية تتعلق بحجم البحث ومحدوديته، ولقد قدمنا مدخلا يبين أهمية الجرس الصوتي للكلمة في البناء اللغوي الدلالي، ثم قمنا بعرض الكلمات التي تحتوي جرسا لافتاً يكتنز دلالة صوتية تشي ببيان إعجازي، وكانت التفاسير وكتب اللغة هي المرجع في تفسير الآيات الكريمة، ثم وضعنا خاتمة للبحث لخصنا فيها أهم النتائج التي توصلنا إليها .

فالله نسأل أن يكون عملنا هذا خالصا لوجهه، وأن يكون بذرة خير في البحث عن المستوى الإعجازي المتعلّق بالجانب الإيحائي لجرس الكلمة .

مدخل

كثيرة هي أوجه الإعجاز القرآني ومتسعة هي مجالات البحث فيها تتجدد كل يوم وتفتح آفاقا أوسع وتكشف عن مساحات جديدة للبحث الإعجازي، فالقرآن كتاب الله الخالد الصالح لكلّ وقت وزمان، وقد كتب ويكتب في مختلف تلك الأوجه: الفقهية والعلمية والفلكية وغيرها، ويعد مجال اللغة مجالاً مهماً من مجالات تحقق الإعجاز القرآني، فقد أنزله الله بأفصح لسان وتحدى به أهل البلاغة حتّى وقف زعيمهم إزاء

بلاغته متحيرا فقال((إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وَما يعلى، وما أشكّ أنه سحر))[١] .

ومجالات البحث في الإعجاز اللغوي كثيرة ومتعددة، وقد اخترنا في بحثنا هذا جانبا مهما قل فيه البحث على الرغم من أهميته في الكشف عن إعجاز وجمالية البناء اللغوي للقرآن، وهو جانب جرس الكلمة وإيحاءات ذلك الجرس، وجرس الكلمة هو أحد مجالات تحقق البلاغة الصوتية، والجرس هو الخاصة الفطرية في اللغة التي تكتسب من أصل استعمالها الحسي [٢]، فالجرس وإيحاؤه يكون فاعلا في استدعاء الصورة الحسية للمدلول، وهذا موضع لطيف شريف بحسب تعبير ابن جنّى[٣]فالجرس على وفق ما مر هو أن يأتي مسموع الأصوات موافقا لمحسوس الأحداث [٤] والقرآن هو الكتاب المعجز فلا شك أن تكون لغته على أتم وجه وأكمله، فإذا رحنا نلتمس جرس الألفاظ وإيحاءاتها الصوتية المتكاملة مع جميع مستويات اللغة وجدنا أنّ القرآن وظّف هذه الطاقة اللغوية بشكل دقيق جدا، فكأن اللفظة القرآنية تكاد تكون مستقلة بجرسها ونغمها الذي يصور اللوحة الحسية ويبرز ألوانها ويوحي بظلالها[٥] فهو يوظف ذلك الجرس النغمي للكلمة، وما تحمله تحتها من ظلال للمعاني، في إثراء معنى الكلمة وزيادة دلالتها والإيحاء بمضمونها، من قبل أن يوحي المدلول اللغوي به [٦] والبلاغة الصوتية تعتد

(١) تفسير الطبري ج٢٥:٢٤

(٢) ينظر: البلاغة الصوتية :٢٨

(٣) ينظر :الخصائص :١٥٤

(٤) ينظر :البلاغة الصوتية :٢٨

(٥) ينظر: مباحث في علوم القرآن :٣٣٤

(٦) ينظر:لغة القرآن دراسة توثيقية فنية :١٤١

بالجرس عندما يؤدي دورا فعّالا في تحقيق الغرض من الكلام وذلك بتهيئة النفس تهيئة النفس وإثارة الخيال [1] فلجرس الألفاظ فعل مهم في تكوين جمالية اللغة، فهو ((قيمة جوهرية في الألفاظ وبنائها اللغوي، وهو أداة التأثير الحسي))[2] وتوظيف هذه القيمة اللغوية في تكوين نص كامل يتطلب أعلى مراتب البلاغة فالنص تتجاذبه مستويات كثيرة نحوية وصرفية ومعجمية ودمجها وتوحيدها كلها في لحظة واحدة ولهدف واحد يعد مرتبة بلاغية عليا، وهذا ما نحاول إثباته في هذا البحث، فالقرآن حقق تلك المرتبة فجميع المستويات اللغوية فيه تعمل متناغمة، وداعمة للمراد وكاشفة عن المعنى على أتم وجه، وجرس الكلمة أحد هذه المستويات، وقيمة الجرس لا تظهر بطبيعة الحال بشكل متساو في جميع مفردات القرآن فقد يعوض مستوى عن آخر من غير أن ينقص من القيمة البلاغية للنص ؛لذلك سنقدم محاولة الكشف عن قسم من ملامح بلاغة الجرس في مجموعة من المفردات ذات الجرس اللافت والتي يؤدي جرسها الإيحاء الصوتي المناسب إذا ما قورن ببديله المحتمل، فلا يعدل القرآن إلى لفظ ذي جرس مميز إلا ويكون هذا اللفظ فاعلا في تكوين لغة النص المعجز الذي يؤدي معنى فيها وكل شيء إذا ما اجترأ أحد على تبديله فيحسبونه من الكتاب وما هو من الكتاب فيظهر عوار التحريف .

البلاغة الصوتية لجرس الألفاظ

قال تعالى: {فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾} [سورة النازعات:١٣] ومعنى زجرة واحدة صيحة واحدة يسمها الناس من إسرافيل وهم في بطون الأرض [3] فالزجرة هي الصيحة

(١) ينظر :البلاغة الصوتية :٣٠

(٢) جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي :١٩

(٣) ينظر: زاد المسير :ج٤ :٣٩٥

لكن القرآن عدل عنها إلى لفظة (زجرة)والقرآن لا يعدل عن لفظ إلى آخر إلا لوجود خصيصة في ذلك اللفظ تجعله الخيار الواجب الفرضي لتحقيق المستوى البلاغي المعجز .

ولفظة زجرة وردت هنا بهذا اللفظ العنيف وذلك تنسيقا لجو المشهد الجزئي مع مشاهد السورة جميعا [١] فالزجرة ليست مجرد صيحة إنّما هي صيحة تشمل كلّ ما يحتمله الزجر من قهر وردع وهوان وغير ذلك مع ملحظ قريب من معنى المادة الحسي [٢] فالزجرة في اللغة المرّة من الزجر، وهو الكلام الذي فيه أمر أو نهي في حالة غضب، و زجر البعير، أي صاح له لينهض، و قد عبر بها هنا عن أمر الله بتكوين أجساد الناس وهم أموات تصويراً لما في ذلك من معنى التسخير لتعجيل التكون كذلك مناسبة لإحياء ما كان هامدا مثل ما يبعث البعير البارك غير المستعد للنهوض بزجرة ينهض بها سريعا خوفا من زاجره[٣].

فالتعبير بكلمة (زجرة) عن الصيحة جاء مناسبا للسياق الذي وردت فيه لما يوحي به جرس الكلمة وإيحاءاتها من الدلالة الأصلية للمادة وهي الزجر المقرون بالإهانة، فأصوات الكلمة تستحضر صورتها الحسيّة وإحضار تلك الصورة بحسيّتها مناسب للسياق والمشهد الذي يصوّره القرآن الكريم، فما يحمله جرس حروفها يتسق (بيانياً مع حركة الخيل في صدر السورة، وعنف معاناتها لتنطلق ناشطة سابحة. إلى حسم معركة وتدبير أمر)[٤] وهو مناسب للآية التي بعدها {فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾} [سورة النازعات:١٤] فالساهرة هي أرض يوم القيامة سمّيت ساهرة ((لأنّه لا نوم للناس

(١) في ظلال القرآن :ج٦ :٣٨١٨

(٢) التفسير البياني للقرآن :ج١ :١٤٠

(٣) التحرير والتنوير ج٣٠ :٧٢

(٤) – التفسير البياني للقرآن ج1 :140

يومئذ بل هم في سهر دائم بعد مبعثهم من نومهم في القبور))[1] وهذا الإيقاظ الذي بعده سهر أبديّ تناسبه الزجرة بديلا عن الصيحة لما توحي به من التعنيف المناسب لذلك الاستيقاظ، فهي تتكون من حروف مجهورة ذات جرس يتناسب مع ذلك الجو المشحون بالتقريع والتعنيف، فالراء حرف شديد مكرر[2] والجيم من الحروف الشديدة التي تمنع الصوت أن يجري فيها [3] وذلك الجرس الشديد للصوت مناسب تماما لقوة الزجرة في ذلك اليوم العظيم، فكانت اللفظة المختارة عن بديلاتها تتعالق مع مستويات الإبلاغ اللغوي لتوصل الصورة بكل تفاصيلها، تجعل من المحسوس الغائب حاضراً، حتّى كأنّ المتلقي يشعر بوجوده الماديّ فالزجرة تصوّر الفعل للمادي لمدلولها على أتم وجه، وبذلك، كان التعبير القرآني موظفاً لجميع طاقات اللغة من أجل الوصول إلى إعجاز إبلاغي في موقف يحتاج لذلك، وهذا هو البلاغة والإعجاز .

وتوظيف طاقة الجرس في الكلمة في سياق مشهد العذاب يعد غاية في البيان ؛ذلك لأنّ ذلك المشهد يتطلب إحضارا حسيّا لأنّه مشهد لم يختبره البشر في حياتهم .

قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا) [النبأ: ١٤] ومعنى ثجّاجا أي ((منصبا يتبع بعضه بعضا كثجّ دماء البدن، وذلك سفكها))[4] والقرآن عدل عن خيارات من كلمات مماثلة إلى تلك الكلمة لما تمتاز به من جرس لافت يوحي بالمحسوس ويحضره شاخصا ، وهذا الجرس تبقى طاقته اللغوية غير فاعلة ،إلا أن يتم توظيفه في نظم يبعث به الحياة ويفجر تلك الطاقات الكامنة .

(١) التفسير القرآني للقرآن ج١٦ :١٤٣٥

(٢) – ينظر :كتاب سيبويه ج4 :435

(٣) –ينظر المصدر نفسه :434

(٤) تفسير الطبري ج١٥ :٣٤

وجرس كلمة (ثجّاجا) جاء مناسبا تماما لسياق الآية فاعلا في إيصال المعنى على أتم وأجمل وجه، فالثاء حرف يسمح للهواء المزفور أن يمر خلاله من مجرى ضيق فتسمع حفيفا عند النطق به [1] وهذا الحفيف يحاكي صوت المطر وهو ينهمر من السماء ، والجيم حرف انفجاري مجهور شديد[2] وهذا الانفجار والشدة يلائم قوة التدفق، وأسهم التضعيف في زيادة الدلالة للوصول إلى المراد، كذلك توحي بنية الكلمة وتكونها من مقاطع ثج- جا-جا بتتابع زخات المطر، كذلك ناسب هذا الإيحاء الجرسي استخدام لفظة المعصرات بدلا من السماء، فالعصر يوحي بالشدة التي ينتج عنها ردة فعل عنيفة، وهي نزول الماء (ثجّاجّا) .

وجرس كلمة ثجاجا إضافة إلى تعبيره عن مدلوله الحسيّ وإحضار الغائب محسوسا معاينا جاء ملوّنا للوحة الحركية في النص، فالسياق قبل كلمة ثجاجا وبعدها يوحي بالحركة، قال تعالى {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا} [النبأ: ١٢ -١٤] وبعدها {لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا} [النبأ: ١٤- ١٦]، فبناء السماء، وجعل النجوم سراجا، وإخراج النبات، ونفخ الصور، وفتح السماء وتسيير الجبال، هي دفقات حركية متصاعدة، هادئة أحيانا وعنيفة أحيانا أخرى، فهي تشابه زخات المطر التي تقوى وتشتد، فجرس الكلمة هنا جاء مندمجا مع اللوحة الصوتية للآيات القرآنية حالاً في مركزه الذي لا يؤديه غيره بذلك المستوى المبهر، وهذا الجرس لا تظهر طاقاته في إحضار المعاني،

(١) علم الأصوات وأصوات اللغة العربية:٦١

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر ج١ :٢٠٣

إلا أنْ يكون ضمن سياق وتعالق بناء تظهر تلك القوة البيانية للجرس، وهذا ما نجده في تعبير القرآن الذي يفجر طاقات اللغة ويجعلها مُشتغلةً هو الأعلى والمعجز مستوى بياني.

قال تعالى: {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا} [النبأ: ٢٢] وقد جاء في تفسير (غساقا) أقوال للمفسرين عدة ذكرها الطبري في تفسيره وهي :

ما يسيل من صديدهم من البرد، قاله سفيان، وقال ابن وهب والغساق: الصديد الذي يخرج من جلودهم، ما تصهرهم النار في حياض يجتمع فيها فيسقونه. وقال آخرون هو الزمهرير [١] وتتميز كلمة غسّاق بجرس لافت ولهذه الكلمة بدائل كان من المستحيل أن ترد مكانها، والعدول إليها يجعلنا نبحث عمّا تكتنزه هذه الكلمة من دلالات كامنة في جرسها .

نلحظ في لفظة (غساقا) وجود السين والقاف، والسين من صفاته الصفير والقاف من صفاتها القلقلة [٢] وعلى تفسير أنّها صديد يسيل من أجسام الكفار في جهنم بسبب البرد نجد أن جرس السين والقاف مناسب تماما لهذه الدلالة فالصفير في السين يصور صوت الأسنان وهي تصطك من ذلك الزمهرير وقلقلة القاف تناسب خروج الصديد بسبب الزمهرير وذلك الخروج يستلزم تشقق الأجساد بسبب البرد الشديد وذلك التشقق يحدث صوتا مشابهاً لصوت القاف أو يشتمل عليه، فكان جرس الكلمة مُحضرا للصورة الحسيّة بأوضح ظهوراتها، وذلك الظهور لا يتحقق في الكلمة وهي مفردة

(١) ينظر :تفسير الطبري ج٢٤ :٢٠

(٢) ينظر النشر في القراءات العشر ج٢ :٢٠٢

منعزلة بل وجودها متشكّلة في النص هو ما يمنح خصائص جرسها تلك الحياة، وهنا يكمن أحد مظاهر الإعجاز القرآني اللغوي، وهو بعث الحياة في الكلمات عن طريق توظيف طاقات الكلمة جميعها على نحو معجز .

كذلك على القول بالتفسير الثاني وهو أنّ الغساق هو الصديد الخارج بسبب العذاب بالنار فالسين تناسب صوت النار وهي تلامس أجسادهم فالصوت الحادث من ذلك يشتمل على السين، كذلك تناسب القاف صوت خروج الصديد، فخروج الصديد يستلزم انفجار الفقاعات التي تحدث بسبب العذاب بالنار، فجاء جرس الكلمة مناسبا جدا للصورة التي أراد القرآن إيصالها، كما جاء إيحاء جرس الكلمة مناسبا للتفسيرات المختلفة التي فسرت به كلمة غساق، وهنا يكمن إعجاز الجرس الصوتي للكلمة القرآنية، في مناسبته لجميع تفسيرات النص المحتملة، وهذه النقطة تعد منطلقا مهما للبحث في الإعجاز القرآني وهو مناسبة طاقات اللغة في النص القرآني .

كذلك يوحي المد بالألف في مقطعي الكلمة بصوت المعذبين وهم يتجرعون الألم ، فالكلمة تكون من مقطعين(غسا، قا) وصوت (اا) هو صوت الألم الناتج عن العذاب.

قال تعالى :{وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾} [سورة النازعات:٢٩]

ومعنى (وأغطش ليلها) أظلمَ ليلها [١] فاستخدم القرآن الكريم أغطش بدل أظلم وفي التعبير بأغطش بدل أظلم (شدة في الجرس والمعنى، يناسب الحديث عن الشدة والقوة) [٢] كما أن الإيحاء الصوتي لجرس الحروف في كلمة أغطش يوحي بصورة دقيقة تكشف للمتأمل عن دقة التعبير القرآني الذي يحشد جميع مستويات اللغة لإيصال المراد ،فالغين

(١) ينظر: تفسير الطبري ج٢٤ :٢٠٧

(٢) في ظلال القرآن ج٦ :٣٨١٦

حرف من حروف الحلق [١] وهذا العمق في المخرج يناسب العمق الذي يوحي به ظلام الليل والطاء من حروف الشدة والشدة من صفات القوة [٢] وهو مناسب للسياق الذي يظهر آيات الخالق، وحرف الشين صفته التفشي والانتشار [٣] والا نتشار من صفات الليل عندما يتقهقر أمامه ضوء النهار فينشر الليل ظلامه ويتفشى محولا الأفق إلى لونه، فحرف الغين والشين يرسمان صورة الليل بعمقه وانتشاره والطاء بجرسها الشديد تنبه إلى عظمة الخالق وقوته، كما أنّ العمق والانتشار الذي يوحي به جرس الحرف ملائم لدلالة الكلمة نفسها فالغطش هو أشد الظلمة [٤] فلأغطش معان لا تؤديها كلمة أظلم، فأغطش تمتاز بدلالة أخرى تظهر وتتجلى من وراء حدود اللغة، فالكلمة توحي بصورة ظلام انتشر فيه الصمت وساد الركود، وبدت في أنحائه ظواهر الوحشة، وهذه الصورة لا تحققها كلمة أظلم التي تعبر عن السواد الحالك فقط [٥] فجاء الجرس موحيا وراسما لأبعاد الصورة المراد إيصالها .

وجعل الظلمة هنا بإشد ما يكون لبيان قدرة الخالق فالموقف موقف استفهام انكاري {ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾} [سورة النازعات:٢٧]. وذكر إخراج الضحى {وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾} [سورة النازعات:٢٩]. (والإخراج للضحى، وهو انبساط ضوء الشمس، فيه لفت إلى خروجه من الليل، آية من آيات القدرة في الضحى يخرج من الليل

(١) ينظر :الكتاب ج٤:٤٣٣

(٢) -ينظر :النشر في القراءات العشر :202

(٣) - ينظر :شرح الشاطبية :33

(٤) ينظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ج10 :127

(٥) ينظر :مباحث في إعجاز القرآن :١٤٧

وينسلخ منه فإذا الضوء السافر يعقب الظلمة الغطشى) [1]

قال تعالى: {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى وَهُوَ يَخْشَى فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: ٦] جاء جرس الحروف موحيا بالصورة المراد إيصالها على أتم وجه و(عبس يعني: النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعنى تولى أعرض، والأعمى وهو ابن أم مكتوم، حينما جاء إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و كان عنده رهط من أشراف قريش، يدعوهم إلى، الإسلام، ويرجو أن يجيبوه، إذ أتى ابن ام مكتوم، فجعل يناديه و يقول: علمني يا رسول الله علمك الله.و كان لا يدري أنه مشتغل عنه بغيره [2] فوردت كلمة تصدّى في معرض إقباله على أشراف عريش يدعوهم إلى الله والدال حرف مجهور شديد[3] كما اشتملت على حرف الصاد، والصاد حرف مستعل قوي من حروف الصفير[4] هذه القوة والشدة والصفير مناسب لدلالة اللفظة في هذا السياق

فالرسول صلى الله عليه وسلم كان حريصا على كسب أشراف قريش وهذا الحرص يتطلب شدة وعزماً في الخطاب، وإيحاء الصفير في السين ملائم لصورة الخطاب الذي يستلزم وجود صوت لحديث المتبادل، وحروف الصفير دوما تكون هي الأوضح بروزا عند الاستماع لنقاش بين طرفين، وفي مقابل الموقف من دعوة أشراف قريش وردت كلمة (تلهّى) مع الأعمى الذي جاء يسأل علما وهو مؤمن يخشى الله، والجرس في كلمة تلهّى جاء مناسبا للسياق مندمجا في دلالاته وملونا الصورة التى أراد القرآن

(١) التفسير البياني للقرآن ج/ 1 :149

(٢) ينظر: تفسير الواحدي ج٤ :٤٢٢

(٣) ينظر: النشر في القراءات العشر :٢٠٢

(٤) ينظر المصدر نفسه :٢٠٢- ٢٠٣

إيصالها، فقد جاء حرف الهاء متمركزا مشددا وسط الكلمة، والهاء حرف مهتوت ضعيف [١] وهذه الصفات مناسبة تماما للموقف الذي اتخذه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فالإعراض عن المؤمن السائل يعد ضعفا في مقام الدعوة ؛لذلك عاتب الله سبحانه وتعالى بنبرة تشتد وتنتقل (إلى التعجيب من ذلك الفعل محل العتاب: أَمَّا مَنِ اسْتَغْنى، فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى وَما عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى وَأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعى وَهُوَ يَخْشى، فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى)[٢].

قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ} [عبس: ٣٣] وقد جاء في تفسير الصاخة أنها ((من أَسمَاء يَوْم الْقِيَامَة، ذكره ابْن عَبَّاس مثل الطامة والحاقة وَالْقَارِعَة وأشباهها، وَقيل: الصاخة هِيَ الداهية الَّتِي يعجز عَنْهَا الْخلق، وَقيل: الصاخة الصاكة، يُقَال: صخ فلَانا إِذا صَكه)[٣] وقال الخليل: صيحة تصخ الآذان بمعنى تصمها لهول وقعتها [٤] وقال أبو بكر بن العربي أن الصاخة هي التي تورث الصمم، مع اسماعها وهذا غاية الفصاحة [٥] والصاخّة لغة مأخوذة من صخيخ الحجر تقول: ((سَمِعت صَخيخ الْحجر، إِذا ضَربته بِحجر آخر))[٦] والصاخة ((لفظ له جرس عنيف قوي صارخ، يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء، حتى يصل إلى الأذن صاخا ملحا وهذا الجرس العنيف يمهد للمشهد الذي يليه: مشهد المرء وهو يفر وينسلخ من ألصق الناس به: (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ

(١) ينظر الممتع في التصريف :٤٢٨

(٢) في ظلال القرآن ج٦ :٣٨٣٤

(٣) تفسير السمعاني ج٦: ١٦١

(٤) ينظر :البحر المحيط في التفسير ج١٠: ٤٠٥

(٥) ينظر: المصدر نفسه :٤١٠

(٦) جمهرة اللغة ٢ :١٠٥٤

وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ) وهو أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط متينة متأصلة ولكن قوة هذه الصاخة تمزق أقوى الروابط تمزيقا، وتقطع أعمق الوشائج تقطيعا [١] فكان جرس الكلمة موحيا بالصورة مؤديا لها على أكمل وجه كما نلحظ أن المقطع (صا) يوحي بصوت الصيحة والمقطع (خة) يوحي بالألم الواقع جراء هذه الصيحة فلتلك اللحظة لحظة ذهول لفظاعة الصوت يعقبه ألم ،ليس الألم الجسدي فقط بل ألم الحسرة والندم .

وطاقت الجرس هنا أبرزها السياق القرآني بنظمه العجيب، فلو وردت مفردة أو في كلام اعتيادي لم تبرز إيحاءات الجرس كما في ورودها في السياق القرآني، فهول المشهد والرعب المقرون بذلك اليوم جعل إيحاءات الجرس تبرز فاعلة موحية .

قال تعالى {وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ} [التكوير: ١٧] وتفسير قوله إذا عسعس أي إذا أدبر [٢] يقال عسعس الليل بمعنى أقبل، وعسعس أدبر، والمعنيان راجعان إلى شيء واحد، وهو لحظة بداية الظلام في أوله، ولحظة إدباره في آخره)[٣] وقد عدل عن التعبيرات الأخرى إلى لفظة عسعس لما تحتويه من جرس يلائم ويدعم إيصال الصورة فلفظة (عسعس مؤلف من مقطعين: عس. عس. وهو يوحي بجرسه بحياة في هذا الليل، وهو يعس في الظلام بيده أو برجله لا يرى وهو إيحاء عجيب واختيار للتعبير معجز)[٤] والعين من الحروف المتوسطة بين الشدة والرخاوة والسين من الحروف المهموسة الضعيفة [٥]

(١) ينظر :في ظلال القرآن ج٦: ٣٨٣٤

(٢) ينظر تفسير الطبري ج١٧ :٢٥٥

(٣) معاني القرآن وأعرابه ج٥ :٢٩٢

(٤) في ظلال القرآن ج٦ :٣٨٤١

(٥) ينظر: النشر في القراءات العشر ج١ :٢٠٢

وهذا التناوب بين العين والسين يؤذن بانجلاء الليل ودخول الصبح بهمسه الهادىء، فكان جرس الكلمة موحيا بحركية التعاقب الزمني، وتناوب الضعف والشدة ملائم لحركية الزمن فالزمن خفي شديد في آن واحد فنحن نغفل جريان الزمن لكنّا نحس آثاره الشديدة، لقد جعل القرآن من إمكانات اللغة التي قد يعجز الكثير عن إظهار فاعليتها وتوظيفها، فالإعجاز القرآني في توظيف جرس الكلمة يدلنا على موطن مهم من مواطن الإعجاز وهو توظيف الطاقة الإبلاغية في اللغة وإيصالها إلى معجز مستوى.

قال تعالى {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ كِتَابٌ مَرْقُومٌ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ} [المطففين: ٦-١١] ففي هذه الآية الكريم تتميز كلمة (سجين) بجرس خاص يوحى بما وراء هذه الكلمة من صورة حسيّة يريد القرآن الكريم إيصالها، وقد جاء في تفسيرها تأويلات عدة: فيرى مقاتل أنها الأرض السفلى، وعند الزجاج: السجين فعيل من السجن والمعنى: كتابهم في حبس ويرى مجاهد أن سجين هي صخرة تحت الأرض السفلى يجعل كتاب الفجار تحتها، وعند الكلبي: الصخرة التي عليها الأرضون مسجونة فيها أعمال الكفار لا تفتح لهم أبواب السماء [١]، وجرس الكلمة جاء موحيا بتلك الصورة الرهيبة الراعبة لمكان أعمال الكفار فالجيم الشديدة المشددة والمد بالياء يوحيان بشدة ذلك المكان وبعده وآزر ذلك مجيئها على صيغة (فِعّيل) وفيها ((مبالغة كما تقول شِرّيب من الشرب وسكير من السكر))[٢] وهذه الشدة وبعد الغور تستلزم صعوبة ذلك المكان فكلما بعد مكان السجن يشتد فينقبض لذلك المسجون ويزيد عذابه، وهذا العمق منا سب للمكان الذي يوضع فيه الكتاب الذي

(١) ينظر: تفسير السمر قندي ج٣ :٥٥٧

(٢) تفسير ابن فورك ج٣ :١٧٢

يسجل الأعمال، فأعمال الإنسان هي غور بعيد لا يعلمه ولا يحيط به إلاّ خالقه .

وما جعل ذلك الجرس فاعلا ليس قيمته الذاتية المجردة بل وروده في نظم يمنح تلك الأحرف قدرتها التعبيرية على نحو معجز .

قال تعالى: { هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ} [الغاشية: ١] ولفظة الغاشية لفظة ذات جرس لافت يوحي بما وراءها من معانٍ، وجاء في تأويلها أنها يوم القيامة أو النار تغشى وجوه الكافرين [١] ((وكلتاهما غاشية، هذه تغشى الناس بالبلاء والأهوال والكروب، وهذه تغشى الكفار باللفح في الوجوه، والشُّواظ والنحاس))[٢] فدلالة الغاشية هي دلالة العموم والشمول فيوم القيامة يشمل الجميع وقي تأويلاها بنار جهنم، تبقى دلالة الشمول فتلك النار يعم عذابها ويغشى جميع الجسد، وجرس الكلمة، فعمق مخرج الغين والمدّ بالألف والياء مع الوقف على يوحي بالعمق والامتداد، والشين يوحي بالانتشار والتفشي، والغين إضافة إلى ما منحه من جرس موحٍ بالعمق الداعم لدلالة الامتداد، يوحي جرسها بالتفخيم والتهويل، فالغين من حروفٍ التفخيم [٣] فكان جرس الكلمة وإيحاؤه محضرا للمعاني بصورة المحسوس الشاخص، وهذا التوظيف لكل طاقات اللغة من أجل إيصال الصورة بأدق تفاصيلها، يكون فاعلا ومؤثرا في مواطن ذكر أهوال يوم القيامة ؛لأن تلك المواطن لا توجد لدى الإنسان خبرة سابقة محسوسة عنها ؛لذلك نجد اللغة في تلك المواطن موظفة بكل طاقاتها لإيصال المعنى الغائب المتخيل في صورة محسوسة بواسطة جرس الكلمة وما يوحيه من ظلال المعاني التي تعمل على تلوين المواطن الباهتة من الصورة للتجلى بأدق ظهوراتها .

---

(١) ينظر تفسير الطبري ج٢٤ :٣٨١

(٢) المصدر نفسه :٣٨٢

(٣) ينظر النشر في القراءات العشر ج1 :202

قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ} [العاديات: ٦] ولفظة كنود في الآية الكريمة يشعر جرسها بمعان تستشف من ورائه، وقد جاء في تفسير كنود تأويلات عدة فقيل الذي يكفر اليسير مع عدم شكر ه ونسيانه الكثير أو اللوام لربه، وذلك بذكره المصائب ونسيانه النعم أو هو [١] وتجتمع هذه التأويلات عند نقاط معينة ترسم تلك الشخصية، وهي الجحد والقلق وكثرة التلوم، والظلم ، ونكران الحق، وجرس كلمة كنود توحي بهذه الصورة وتشي بملامحها، فالدال حرف شديد[٢] وهذه الشدة تلائم شخصية الجاحد مانع الحق الظالم، كما تلائم القلقلة في الدال [٣] تلك الشخصية القلقة غير المستقرة، والهمس في الكاف[٤] كذلك يوحي بصورة تلك الشخصية فالهمس والكيد في الخفاء من ملازمات تلك الشخصية، فالنكران وإخفاء الحقائق تتطلب المكر والخداع، والواو ملائمة كذلك للشخصية كثيرة اللوم فالواو تظهر كثيرا في أسماء الأصوات التي تدل على التضجر مثل (أووو) والمدة في الواو توحي بدلالة حصول ذلك كثيرا من الإنسان .

لقد كان جرس الكلمة يوشي بما تحته من صورة ويحضره للعيان، وتوظيف هذه الطاقة اللغوية في هذا الموطن مناسب جدا فالسياق سياق كشف عن شخصية الإنسان وهي شخصية محورية في الخطاب القرآني ؛ لذلك تتطلب مزيدا من الكشف والتبيين، فجاءت لفظة كنود كاشفة للصورة في أدق تجل لها ؛ لذلك جاءت هذه الكلمة لا غيرها من الخيارات الأخرى ممكنة الورود .

لا يقتصر الإيحاء الجرسي في القرآن على الكلمة المفردة بل قد يقع هذا الإيحاء نتيجة

(١) ينظر: تفسير العز بن عبد السلام ج٣ :٤٨٠
(٢) ينظر النشر في القراءات العشر ج ١ :٢٠٢
(٣) ينظر: المصدر نفسه :٢٠٣
(٤) ينظر: المصدر نفسه :٢٠٢

تشكل معين لجرس الكلمات، وهذا التشكل المتق يسهم في استحضار الصورة التي يريد القرآن الكريم إيصالها ؛ ليتم إيصال المعاني على أتم وجه ففي قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا } [الطارق: ١٥ - ١٦] تكرر حرف الكاف وهذا التكرار أسهم في إبراز جرس هذا الحرف الذي يوحي بالصورة التي يريد القرآن إيصالها، وتردد حرف الكاف يشيع جواً من التدبير الخفي ((ومكره جلّ ثناؤه بهم: إملاؤه إياهم على معصيتهم وكفرهم به))[١] وحرف الكاف صفة ومخرجا ((يفسر اكتسابه تلك الدلالة الصوتية في هذا السياق خاصة ،فإن الكاف حرف مهموس لا تفخيم فيه وهو بصفته هذه يشعر بالتدبير الخفي))[٢] فكان جرس الكاف فاعلا في استحضار الصورة، وهذه الصورة تمثل محورا مهما يحتاج إلى توظيف كل طاقات اللغة من أجل إيصالها على أتم وجه، وهذا التوظيف لجميع طاقات اللغة لا يمكن إلا أن يعد الأعلى في مراتب البلاغة فإحياء الكلمات يتم عن طريق نظمها بطريقة تجعل من جميع خصائصها حيّة نابضة .

: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} سورة الناس . نلحظ تكرر حرف السين مخترقا جسد النص وباثا فيه إيحاءاً مناسبا لجو النص والصورة، فانتشار حرف السين وهو من حروف الهمس في أكثر كلمات السورة يحدث جوّا من الوسوسة والهمس الخفي و شيوع هذه الوسوسة يدخل في الروع الحذر من ذلك الخناس الذي يتسلل في خفية ويتسرب إلى نفوسنا و تكرار كلمة الناس يشعر بالصفة الخاصة ببني آدم والحافزة على تتبع الشيطان لهم [٣] لقد أدى تآزر جرس الحرف إلى استحضار الصورة

(١) تفسير الطبري ج٢٤ :٣٦٣

(٢) البلاغة الصوتية في القرآن :٣٤

(٣) ينظر :البلاغة الصوتية في القرآن الكريم :٣٣

الغائبة إلى الحس عن طريق خلق جو يوحي بها، فيعمل الشعور الإنساني على تكوينها ورسمها كأنّه يعيشها عياناً.

خاتمة

بعد رحلة التقصي لمظاهر فاعلية الجرس في استحضار الصور في القرآن الكريم نصل إلى نتيجة مهمة جدا تفتح آفاقا واسعة للباحثين في مجال الإعجاز القرآني، وهي أن الكلمات ذات الجرس اللافت والتي لها خيارات كثيرة ممكنة، تكتنز أبعادا دلالية تعد عنصرا مهما في البيان، وأن هذه القوة البيانية في الجرس لا يتأتى استعمالها إلا للفصيح صاحب البيان العالي والقرآن قد وظف تلك الطاقة الكامنة في اللغة وأبرزها، فكانت فاعلة في تكوين النص المعجز بيانيا، ومجالات البحث في الجرس وفاعليته في تكوين النص المعجز باب واسع مشرع للباحثين الجادين للدخول فيه .

كما توصلت هذه الدراسة إلى أن الكلمة المفردة فيها طاقات كامنة للتعبير لا تحيا إلى عند استعمالها ،وأن القرآن بث الروح في تلك الكلمات لتكون مُشتغلةً بيانيا على مستوى معجز.

إنّ المتكلم الاعتيادي وحتى الفصيح من المستحيل عليه توظيف جميع أمكانات التعبير البيانية في الكلمة، فذلك يتطلب قدرة غير اعتيادية، فتلك المستويات متجاذبة ومتعالقة والجمع بينها وجعلها تسير في اتجاه بياني واحد هو الإعجاز اللغوي في أسمى تجلياته، وقد استطاع القرآن الكريم أن يجمع بين تلك المستويات ومن ضمنها إيحاء الجرس اللغوي للكلمة .

المصادر

١. :التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ م.

٢. بحر العلوم ،المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ) د.ت.

٣. البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) ،المحقق: صدقي محمد جميل الناشر: دار الفكر – بيروت الطبعة: ١٤٢٠ هـ .

٤. البلاغة الصوتية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم شادي، جامعة الأزهر ط١ -١٩٨٥م.

٥. تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون المؤلف: محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر (المتوفى: ٤٠٦هـ)، تحقيق مجموعة من الطلبة، جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية الطبعة الأولى: ١٤٣٠ – ٢٠٠٩ م .

٦. التفسير البياني للقرآن الكريم لمؤلفته: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (المتوفاة: ١٤١٩هـ) دار النشر: دار المعارف – القاهرة الطبعة: السابعة د.ت.

٧. تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي) العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن (المتوفى: ٦٦٠هـ) المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي الناشر: دار ابن حزم – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م

٨. تفسير القرآن المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى

السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ) المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم الناشر: دار الوطن، الرياض - السعودية الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.

٩. جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر مؤسسة الرسالة ط، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

١٠. جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب، ماهر عطية هلال، وزارة الثقافة والإعلام - بغداد -١٩٨٠م .

١١. جمهرة اللغة المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) ،المحقق: رمزي منير بعلبكي الناشر: دار العلم للملايين - بيروت الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م .

١٢. الخصائص المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ) الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: الرابعة .د.ت.

١٣. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ.

١٤. علم الأصوات وأصوات اللغة العربية ،د روعة محمد، المؤسسة الحديثة للكتاب - بيروت-٢٠١٢م .

١٥. في ظلال القرآن ،سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، دار الشروق - بيروت- القاهرة ط السابعة عشرة - ١٤١٢ هـ

١٦. الكتاب المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ) المحقق: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة

الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

١٧. الكشف والبيان عن تفسير القرآن المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م.

١٨. لغات القرآن; الكاتب: أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت ١٤٢٤); الناشر: مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ط٢سنة النشر: ١٤١٨ - ١٩٩٧ .

١٩. مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم للنشر والتوزيع – الرياض ط٢ -١٩٩٦م .

٢٠. معاني القرآن وإعرابه المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) ،المحقق: عبد الجليل عبده شلبي ،الناشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٢١. الممتع الكبير في التصريف المؤلف: علي بن مؤمن بن محمد، الحَضْرَمي الإشبيلي، أبو الحسن المعروف بابن عصفور (المتوفى: ٦٦٩هـ) الناشر: مكتبة لبنان الطبعة: الأولى ١٩٩٦ .

٢٢. النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (المتوفى: ٨٣٣ هـ) المحقق: علي محمد الضباع (المتوفى ١٣٨٠ هـ)الناشر: المطبعة التجارية الكبرى [تصوير دار الكتاب العلمية]

٢٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الدكتور أحمد محمد صيرة، الدكتور أحمد عبد

الغني الجمل، الدكتور عبد الرحمن عويس الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان
الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .